

محنة القومية العربية

الدكتور أحمد حسني

(الموصل)

الى ان يقتله رجل اسمه فيروز ويلقب بابي الولوة
الفارسي الشعبي .

وتحدثنا المصادر التاريخية : - ان اول مخطط
هدام للقضاء على القومية العربية قام بوضعه (عبد الله
ابن سباء) المعروف « بابن السوداء » وقد ولد هذا
اليهودي الحاقدي في مدينة صنعاء باليمن وتثقف
بالثقافة الفارسية وظهر اسلامه لينتقم من المسلمين
ويضل الناس وكان يصيغ مبادئ الهدامة بصيغة دينية
حتى يضل بها عامة الناس فكان يقول : - لقد عجبت
من يقول برجعة المسيح ولا يقول برجعة محمد ،
وبذلك وضع مذهب الرجعة اي رجعة محمد كما روج
بين المسلمين نظرية الحق الالهي التي اخذها من الفرس
الذين احتلوا قبل الاسلام بلاد اليمن موطنه الاصلي .

وقد هيا ابن سباء العقول الى الاعتقاد بان عثمان
ابن عفان المُنصب الخلافة واخذ يؤلب الناس عليه
ويدعوهم الى الثورة على خلافة عثمان بن عفان وبعث
دعائه لنشر هذه المبادئ الهدامة بين عامة الناس
وقد نجحت دعوة ابن السوداء في البصرة والكوفة وفي
مصر ولم تنجح في الشام

وحقق ابن سباء اليهودي الهدام ما كان يرمي
اليه من تاليب الولايات العربية على الخليفة عثمان بن
عفان وقد بلغت دمونه الغاية منها حيث انضم كثير
من اصحاب النفوذ والجاه اليه مما ادى الى قتل
الخليفة عثمان بن عفان بعد ان حاصره الثوار في داره
22 يوما ، فكان ذلك اول فصول هذه المأساة ومسا
اعتقها من نشوب الحروب الاهلية في البلاد العربية
واخذت الكوارث الدامية تحل بالامة العربية الواحدة
تلو الاخرى ، منها واقعة الجمل التي حدثت في
جوار البصرة بين انصار عثمان بن عفان وبين الخليفة

بدا الصراع الدموي بين القومية العربية وبين
الشعبوية بعد ان تحرر العراق العربي من نير الاستعمار
الفارسي في عهد خلافة الفاروق عمر بن الخطاب ،
وانضمام هذا القطر العربي الى الامم الوطن العربي الكبير
وربط مصيره باشقائه الاقطار العربية الاخرى كسوريا
ومصر واليمن والحجاز والاقسام الاخرى من الوطن
العربي الكبير الامر الذي ادى الى تكالب الشعبيين
وازدباد حقدتهم على القومية العربية التي حملت
رسالة الاسلام الخالدة واثارت بمشعلها الوهاج وانوارها
الساطعة البشرية قاطبة .

والقومية العربية الخالدة التي حملت راية الاسلام
هي التي اوجدت مبدأ الضمان الاجتماعي الذي دعت
اليه تعاليم الاسلام في جوهره يكفل للفرد العيش في
سعة ويؤمن للسكان اجمعين ضمانا اجتماعيا قويا ضد
المادة والوفاء والعجز والشيخوخة ولم تمض حقبة
من الزمن حتى فتح العرب المعمورة باجمعها واسسوا
في البلاد المتحررة انظمة مستمدة من تعليم الدين
الحنيف تكفل لجميع الشعوب على اختلاف الوانها
وعقائدها وقومياتها الحرية والمساواة وحرية التملك
وحرية المباداة وحرية ابداء الراي . هذه هي المبادئ
السامية التي حملتها القومية العربية الخالدة للبشرية
اجمع ، الامر الذي ادى الى حقد الشعبوية واليهودية
وقد بدأ التآمر على القومية العربية منذ تولى الخلافة
الفاروق العظيم عمر بن الخطاب (رضي) وما كان
يظن ان تنتهي حياة ذلك العادل المحب لرعيته بضربة
خنجر ولكن ذلك حتى يعلم الناس حقد الشعبيين على
القومية العربية ، فان عمر اذا كان قد ارضى العرب
بما صنعهم وارضى المعجم بما افاض عليهم من العدل
فقد اغضب كبراهم وذوي السلطان عليهم لانه نزل
مروث مجدهم وزلزل قصور عظمتهم الامر الذي ادى

علي بن ابي طالب قتل في هذه الواقعة (10) آلاف من شجعان العرب ، وليت الامر وقف عند الحد بل اخذت الحروب الاهلية بين العرب تتعاقب بفضل الشعبيين والخرق يتسع بين العرب الذين حملوا راية الاسلام فحدثت حرب صفين بين الخليفة علي بن ابي طالب وبين معاوية بن ابي سفيان المطالب بدم عثمان ، ولم تكن واقعة الجمل على شدة هولها ونظامه امرها الا مقدمة لما هو اشد منها هولاً هو الحرب في صفين . انتهت واقعة صفين التي قتل فيها من شجعان العرب وامجادهم تسعون الفا ، وهو عدد لم يذهب مثله ولا قريب منه في جميع الوقائع الاسلامية من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تاريخها . ومما يزيد الاسف ان هذه الحرب لم يكن المراد منها الوصول الى تقرير مبدأ ديني او رفع حيف بالامة انما كانت لنصرة شخص على شخص وقد نتج عن حرب صفين احداث محزنة ومؤسفة حيث انها ادت الى البلبلة والانقسام في صفوف الامة العربية . فقد عاد الشاميون من هذه الحرب الاهلية الى دمشق وانصرف العراقيون الى العراق ولكن شتان بين رجوع اهل الشام وبين اهل العراق عاداهل الشام متفقي الكلمة ورجع اهل العراق وقد وقع الخلاف بينهم ودب الانقسام الى صفوفهم ولقد اقبلوا بتدافعون الطريق كله ويتشائمون ويتضاربون بالسيوط مما ادى الى قيام حرب جديدة أطلق علي نفسه (الخوارج) ثم اصبحنا امام ثلاثة احزاب بعد ان كنا امام حزبين اثنين . اولا حزب الشيعة ، ثانيا حزب الامويين ، ثالثا حزب الخوارج ، واخذت هذه الاحزاب الثلاثة في التطاحن مما ادى الى اضعاف مقدرة القومية العربية ومناعتها لصد العدوان الداخلي الذي يقوم به الرتل الخامس فكان نفوذ فرق الزنادقة من مجوسية ومزدكية يمتد في فسبح البلاد الاسلامية للكيد ونشر الفوضى تحت شعارات وبراقع مختلفة الالوان حتى نمت الاحزاب الهدامة على حساب القومية العربية .

وكان الامويون قد جردوا السيف لهذا الخطر الداهم ولذلك تواترت الشكاوي على مثل والي العراق زياد بن ابيه وخلفه الحجاج بن يوسف الثقفي لان ولايتهما كانت في قلب الفتنة (الصراقة) وفي مهبط ريحها فلما رالت الدولة الاموية بدسائس الشعوبية الماكرة ووجد الزنادقة والاحزاب الشعوبية الهدامة مجالا واسعا لبث سمومهم وهدم كيان القومية العربية احسن الخليفة العباسي ابو جعفر المنصور بالخطر فاعمل السيف في اربابها كابي مسلم الخراساني وحزبه،

الا انه لم ينفرغ لها التفرغ الكامل فقضى - والدولة العباسية مهددة بالروال ، وتناول السيف خليفته المهدي ثم ابنه الهادي ثم اخوه الرشيد .

ولما وقع الشقاق والخلاف بين الاخوين الامين والمامون وجد الزنادقة والاحزاب الهدامة الاخرى متنفسا آخر فازداد نشاطهم . ومن اخطر الحركات التي انبثقت لهدم الاسلام والتفشاء على القومية العربية وسحق تعاليم الدين كلها سعيها الى تعظيم السلطة السياسية التي تقوم على هذه التعاليم - تلك الحركة التي تزعمها رجل كان اذكي واخطر من ابن سبأ ، وهذا الرجل هو المدعو « عبد الله بن ميمون القداح » وهو ابن فقيه ملحد من جنوب فارس ، وكان ميمون بن ديصان امام جماعة من الملحدين يريفون الاحاديث وينشرون في العامة مبادئ الانتكار والهدم والاباحة ويظهرون في نفس الوقت تشيما لال البيت لاخفاء مقاصدهم الحقيقية ، وما كاد ابن حيمون ينظم جمعياته السرية الهائلة في جنوب فارس حتى بعث بدمائه الى جميع الاقطار العربية يبثون مبادئ التوقيض والهدم والتبشير بالمهدي المنتظر . وكان داهيته في العراق رجلا يسمى « الفرج بن عثمان القاشاني » ويمصرف « بذكرويه » وهو فارسي من مدينة قاشان ، وكان يبت الدعوة سرا ثم نهض في سنة 278 هجرية رجل من اتباعه داهية في الاستهواء والدس بمكان يعرف بالنهرين على مقربة من الكوفة يبت الدعوة جهرا فاستجاب له جمع كثير ولقب بـ (قرمط) وكان يدعو الى خروج المهدي المنتظر الذي يملأ الارض بعدله وكان يأخذ من كل واحد من اتباعه دينارا للامام وجعل عليهم اثني عشر نقيبا سماهم الحواريين ، ولما علم عامل الناحية بامره قبض عليه وحجسه ففر من سجنه واخفى حيناً وازداد انصاره تعلقا به ، وقالوا انه رفع الى السماء ثم ظهر في ناحية اخرى من الكوفة وعكف على بث دعوته ثم فر الى الشام واخفى بمسد ذلك ولم يقف له احد على خبر ونشأ هذا المذهب الهدام الجديد في انحاء الكوفة واطلق على انصاره (القرامطة) نسبة الى داهيتهم قرمط .

وهكذا قام حزب القرامطة على الشيوع والاباحة فقد بدأ قرمط يجمع من انصاره الضريبة العامة بنسب صغيرة وينسب كبيرة ، ثم افنى الملكية الفردية ثم قرر شيوع المرأة وغيره من صنوف الاباحة القائمة على استغلال اغس الشهوات البشرية وبذلك نظم مجتمعا شيوعيا وسرمان ما تحول القرامطة الى عصابة هائلة من السفاكين والاشقياء تقتل خصومها وتستحل اموالهم وامراضهم وتثشر الدمار والرهب

كانوا يلقونه من غلمان الاثراك المرتزقة من اهانت وكبت للحريات ومصادرة للاموال والممتلكات ، ونتج عن ذلك ان غلمان الاثراك وجدوا انفسهم منفردين بالحكم والسلطان واصبحوا هم الامريين في الدولة العباسية ولم يقف الامر عند هذا الحد بل تعدى الى ان امتدت ايديهم على حياة الخلفاء واموالهم .

فعندما استلم المتوكل الخلافة وحاول ان يكف ايدي غلمان الاثراك عن التدخل في شؤون الدولة وسياستها قتلوه وصار ابنه المنصور الذي اشترك معهم في قتله طوع بناتهم ، واصبحت الدولة العباسية ميدانا للفوضى والدسائس وغدا امر تولية الخليفة وعزله او حبسه او قتله في ايدي (غلمان الاثراك) .

ومن هنا بدأ ظهور طوائف الملوك في الوطن العربي المستقلة وشبه المستقلة في اطراف الدولة العباسية كدولة الصفارية والسامانية والفرزونية والعلوية في الشرق العربي والدولة الاقلية بتونس والفاطمية ببلاد المغرب والطولونية والاخشيديية بمصر وبنو امية بالاندلس ودولة الزيدية باليمن .

وبينما كان الشعب العراقي العربي ينظر الى هذه الكوارث والماسي التي حلت بالعراق على ايدي الشعوبيين بكل يقظة وحذر لكي يتخلص من هذه الطغمة المرتزقة اذا بسيل جارف آخر من الشعوبيين يتدفق صوب بغداد وهو عنصر جديد من بلاد الديلم يعرف باسم (آل بويه) فانزمو الحكم والسلطان من غلمان الاثراك ببغداد وجعلوا العراق ملكا لاحدهم يتصرف فيه كما يشاء ، والخليفة الشرعي قابع في قصره بالمر بامر . وقد ارتكب البويهيون اكبر جريمة في حق الشعب العراقي اثناء سيطرتهم على مقدرات العراق بتشجيعهم الطائفية بين السكان .

وتحدثنا المصادر التاريخية ان معز الدولة البويهي الذي كان يسيطر على مقدرات العراق اصدر امرا في بغداد في العاشرة من شهر محرم سنة 352 هـ يقضي بالزام الناس ان يفلقوا دكاكينهم ويبتلوا الاسواق والبيع والشراء وان يظهروا النياحة (الطبك) ولبسوا قبايا مطوها بالمنوح (الاكفان) وان يخرج النساء ناشرات الشحور ومسودات الوجوه قد شققن ثيابهن يدرن في البلد نائحات ويلطن وجوههن على الحسن ابن علي ، فعمل الناس ولم يكن للخليفة العباسي قدرة على منع هذه البدعة السيئة التي لم يكن لها اي صلة بالدين ، وقد بدل البويهيون جهودا عظيمة لنشر روح الطائفية في جميع ارجاء هذا الوطن ، ولبتوها بمسيرة

فيما حولها ، وقد اجتاحت دعوة القرامطة انحاء البحرين والبصرة والاحساء وعمان والجزيرة ، وامتدت الى سوريا والحجاز ، وبينما كان القرامطة يسرون بانفسهم الى الفناء من جراء المعارك الطاحنة كانت دعوة عبد الله بن ميمون السرية تجتاح بلاد اليمن وتبشر بقرب ظهور المهدي فانتشرت الدعوة بين القبائل بسرعة واغاروا على من حولهم من القبائل بالسبي والنهب والقتل وارسلوا اموالا كثيرة الى ولد ابن القداح ثم انتقلت هذه الدعوة الى افريقية وانتشرت الدعوة في قبائل المغرب وفي مصر ثم ظهر حزب ثوري سري هدام وهو اخطر حزب عرفه الاسلام ، وهذا الحزب هو (الطائفة الاسماعيلية والباطنية) استمدت مبادئها من تعليم ميمون بن ديصان وولده عبد الله ومن القرامطة ولبثت هذه الطائفة مدة قرن ونصف قرن ارجعت خلالها الدول الاسلامية من فارس الى الشام وحشدت جيوع البسطاء من العامة باسم الدين لتحقيق اغراض السياسية واعتمدت في محاربة خصومها على الاغتيال الخفي المنظم باكثر مما اعتمدت على الحرب العلنية ، وكانت القومية الفارسية تعتمد على الدعوة الثورية هدفست بثورتها المتعاقبة الى تحطيم نير الدولة العباسية واسترجاع حريتها .

ولما ولي المعتصم الخلافة وكانت امة تركية اهمل المنصور العربي والفارسي واعتمد على الاثراك الذين اتخذهم حرسا له واسند اليهم مناصب الدولة كما فعل اخوه المأمون مع الخراسانيين . وكان المعتصم اول خليفة عباسي اعنى باقتناء غلمان الاثراك فبعث الى سمرقند وفرغانة لشراهم وبدل فيهم الاموال الطائلة والبسهم انواع الديباج ومناطق الذهب وكان غلمان الاثراك يتدفقون سنة بعد سنة على اسواق بغداد حتى كثر عددهم ولم يلبث هؤلاء ان اصبحوا آفة على اهل بغداد الذين عانوا من غنتهم وجورهم شيئا كثيرا .

وتحدثنا المصادر التاريخية ان المعتصم كان قد اقصى العرب عن مناصب الدولة المدنية والعسكرية وعن ديوان العطاء واتاح بذلك الفرصة لغلمان الاثراك فزاد نفوذهم واصبحوا خطرا على الخلفاء العباسيين وعلى الدولة العباسية . وقد ادى ظهور المنصور التركي الى تزايد قوة هذا المنصور الدخيل على البلاد وضعف العرب وفرقتهم الى قبائل وبطون مما ادى الى هجرة عدد كبير منهم من المدن والقضبات حيث فضلوا الاقامة والعيش في الارياك والصحاري بخلصا منها

البطائح الى الانفصال عن حكومة المغول في بغداد ،
والف زعماء البطائح مشيخات وتحصنوا في قراهم
المحاطة بالمياه وازداد نفوذ الشيوخ والزعماء الذين
كانوا يسيطرون على البطائح ، وبمرور الزمان نشأت
الاقطاعات في العراق واصبحت كل مشيخة مؤلفة من
عدة قرى يسكنها أبناء عشيرة واحدة مستقلة عن
المشيخات الاخرى ، واصبح شيخ القبيلة هو الحاكم
بأمره يدير شؤون عشيرته وفق التقاليد والمبادئ
الموروثة منقطعة عن العالم الخارجي يعيشون فيها على
زراعة الارز والدخن بطريقة ابتدائية وتربية الماشية
عراة حفاة تفتك بهم الاوبئة والامراض العفنة ويستولي
الجهل على عقولهم محرومين من كل وسائل الحياة
ويبقوا على هذه الحالة السيئة الى ما بعد فتح الدولة
العثمانية للعراق على يد السلطان سليمان القانوني
في سنة 941 هجرية (1543 ميلادية) وكان حكم
الولاة العثمانيين نافذا في المدن والقصبات ، اما
القبائل التي كانت تقطن على ضفاف الانهر وفي البطائح
من جنوب بغداد حتى الخليج العربي فانها كانت مع
ولاة الدولة العثمانية في حروب وثورات دامية مستمرة .
ولقد حاولت الجيوش العثمانية مرارا اخضاعهم
بارسال الحملات العسكرية الواحدة تلو الاخرى زهاء
ثلاثة قرون متواصلة لم تحقق الا بعض نصر موقت ،
اذ ما كانت تعود الحملة العسكرية الى قواعدها بعد حملة
تأديب عارمة حتى يثور سكان البطائح مرة اخرى
ويعلنوا عصيانهم ضد الدولة العثمانية هذا من جهة ،
ومن جهة اخرى شرع ولاة بغداد يزعمون بين سكان
البطائح روح التفرة والتباغض فكانوا ينعمون على
بعض الشيوخ والزعماء منهم بالالاقاب (الباشوية)
ويفرقون عليهم المعطيات من اراض واموال دون الآخرين
لبث روح التنافس والحسد بينهم فيلجأون الى ضرب
بعضهم بعضا .

وفي خلال هذه الحقبة الطويلة من تاريخ العراق
ظل سكان البطائح منقطعين - او يكادون - عن العالم
الخارجي محرومين من كل وسائل التمدن الحديثة
صحية كانت ام ثقافية ام اجتماعية محتفظين في
الوقت نفسه بسجاياهم العربية الخالصة كالكرم
والشجاعة والذكاء الفطري وسرعة الخاطر وقوة
الملاحظة والسليقة الشعرية والاخذ بالشار وحماية
الخارجي محرومين من كل وسائل التمدن الحديثة
مستمر مع الدولة العثمانية وتنكر دالم لها حتى
انحسر ظلها عن العراق على اثر احتلال الجيش
البريطاني للعراق اثناء الحرب العالمية الاولى التي
نشبت سنة 1914 .

رسمية الامر الذي ادى الى انقسام الشعب العراقي
العربي الى طوائف متنازعة متنافرة ، ولا تزال روح
الطائفية البغيضة تنخر جسم الشعب العراقي العربي
المسلم الى يومنا هذا . وفي اوائل القرن الخامس
الهجري ظهر منصر جديد من الشعوبيين المرتوقة
جاءوا من وسط آسيا متجهين صوب العراق وهم
الفر من الانراك وعلى رأسهم البيت السلجوقي زحفوا
الى بغداد وامتلكوها وازالوا عنها آل بويه واصبح آل
سلجوق هم السيطرين على مقدرات الدولة العباسية
وانتشر الفر في طول البلاد وعرضها يدمرون القرى
والقصبات ويصادرون اموال الناس داهم القتل
والنهب وحرقت القرى وسفك الدماء مما ادى الى خراب
آلاف القرى في انحاء العراق ، واستمر الحال على هذا
المنوال حتى خرج سيل المغول الجارف واجتاح
الدولة العباسية وازالها من الوجود ، وقد كان احتلال
المغول للعراق في القرنين الثالث والرابع عشر الميلادي
وسقوط الخلافة العباسية في بغداد الضربة القاضية
على العراق ، وفي هذه الحقبة التاريخية التي مرت على
العراق والتي استمرت عدة قرون كان الشعب العراقي
العربي يتلقى ضربات متوالية من الشعوبية المجرمة
ولو ان اي شعب من شعوب العالم اصابه ما اصاب
الشعب العراقي العربي المسلم الباسل المؤمن بربه
الشعوبيون اثناء سيطرتهم على مقدرات العراق لزال
من عالم الوجود واصبح في عداد الامم المندثرة ، ولكن
الشعب العراقي العربي المسلم الباسل المؤمن بربه
وقوميته صمد وقاوم مقاومة المستميت في سبيل
صون كيانه وعرويته . وقد وجد له عربنا يحمي فيه
ليصد الضربات الموجهة ضده من هذه اللذاب
المفترسة فاختر البطائح (الاهور) الواقعة في العراق
قلعا يحمي فيها ويتحصن بالمياه والسفن ضد
السلطان البويهي وصارت تلك البطائح معاقل حسنة
والف زعماء العرب مشيخات يتولى ادارة كل مشيخة
منها زعيم من العشيرة اثناء سيطرة آل بويه ثم مدة
حكم آل سلجوق التركمانيين الراحقين من اواسط
آسيا (بلاد ما وراء النهر) .

ولما استعاد العباسيون بعض نفوذهم في
بغداد رجع سكان البطائح الى طاعة بني العباس
واحترموا النظام واخذوا يؤدون الخراج الى عمال
الخلفاء العباسيين كما كان الامر من قديم الزمان
وازدادت الهجرة من المدن والقصبات الى البطائح
مرة ثانية عندما اكتسحت جيوش المغول المدن
العراقية تخلصا من القتل والنهب ، وعاد سكان